الأخطاء

نص حوار أجرته جريدة الوطن التي تصدر في الكويت
مع د. عصمت سيف الدولة، ونشرفيها بتاريخ ١٩٨٥/٣/٥:

الحوار مع الدكتور عصمت سيف الدولة يتسع، بقدر موسوعية ثقافة هذا المفكر العربي، ولكنه محدد دائماً بخط أحمر، يعبر عنه الدكتور عصمت بقوله دائماً "انني لست محايداً، بل أنا منحاز للقومية، وللأمة العربية" ومن هذه النقطة التقت الوطن بالرجل وطرحت معه مجموعة من القضايا حول الوضع العربي الراهن، وهذا هو نص الحوار:

الوطن : مارأيكم بالاتفاق الأردني الفلسطيني الأخير الذي وقعه عرفات والملك حسين في ١١ فبراير الماضي وانعكاساته على قضية تحرير فلسطين والموقف القومي؟

د. عصمت : أود أن أنبه أولاً إلى أنه ليس اتفاقاً أردنياً فلسطينياً . إن الشعب العربي الفلسطيني لم يكن طرفاً فيه. وقد كان يمكن أن يقال انه اتفاق أردني فلسطيني، لو انه انعقد فيما بين الدولة الأردنية ومنظمة التحرير الفلسطينية . ولكن يحول دون ذلك أمران : الأمر الأول ماهو ثابت ومعلن من أن حركة فتح، أو قيادتها هي التي أبرمت ذات الاتفاق . وقد عارضته الفصائل الأخرى أعضاء التشكيل الجبهوي الذي نطلق عليه اسم منظمة التحرير الفلسطينية، والأمر الآخر ان الذين أبرموا الاتفاق مع الأردن لم يتمسكوا فيه بوصف منظمة التحرير الفلسطينية بأنها هي الممثل الشرعي " الوحيد " للشعب العربي الفلسطيني ، أعني المنظمة كمنظمة وليس فردا أو أفراداً في المنظمة.

فقد جاء واضحاً في الاتفاق ان الذين سيفاوضون ويتفقون باسم الشعب العربي الفلسطيني أردنيون يمثلون دولتهم يشترك معهم فلسطينيون أياً كانت مواقعهم لا يمثلون المنظمة، لأن من يمثل المنظمة لا يصتطيع إلا أن يعبر عنها كممثل شرعى ووحيد للشعب العربي الفلسطيني، وحين يقبل ألا يكون وحيداً فإنه لا يكون ممثلاً للمنظمة.

ليست هذه مسألة شكلية، بل هي على أكبر قدر من الأهمية. لقد ناضلت منظمة التحرير الفلسطينية نضالاً طويلاً لتكون الممثل الشرعي الوحيد، ولم يكن عبثاً أن تضاف كلمة الوحيد إلى كلمة الشرعي، فقد كان دائماً ثمة من يحاول أن يكون شريكاً في تمثيل الشعب العربي الفلسطيني، فضلاً عمن كان يحاول أن يكون هو الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني دون المنظمة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن آثاراً كبيرة ستترتب على هذا الاتفاق لابد أن تضاف إلى المسؤولية التاريخية لأطرافه أياً كانت النتيجة إن جاء نصراً رائعاً فمن حقهم أن يحسب لهم تاريخياً بدون شريك وإن جاءت كارثة مروعة فلابد أن يتحملوا وحدهم مسؤوليتها دون الزج بمنظمة التحرير الفلسطينية أو الشعب العربي الفلسطيني في هذه المسؤولية.

الوطن: هذا صحيح وعلى ضوئه مارأيكم شخصياً في الاتفاق وآثاره؟

د. عصمت: إن الاتفاق يتضمن عنصرين متميزين أولهما مبدأ "الأرض مقابل السلام " والثاني "إجراءات الوصول إلى هذه المقايضة : المفاوضات، كيفية تكوين الوفد، المؤتمر الدولي، الكونفدرالية.. الخ.. وقد بدأت قبل الاتفاق وبعده حملة منظمة لتركيز الانتباه على الجانب الإجرائي، وذلك بقصد، أو بدون قصد، التعتيم على المبدأ الذي قام عليه الاتفاق. وهذا مايجب التحذير منه.

وأولى الناس بهذا التحذير أولئك الذين عارضوا الاتفاق أو يعارضونه لأنهم يعترضون على واحد أو أكثر من الأشكال الإجرائية. قبل هذا وفوقه يجب على كل من يريد أن يتخذ موقفاً من الاتفاق أن يحدد موقفه من مبدأ "الأرض مقابل السلام ". وموقفي ثابت منذ البداية أي منذ أن عبرت عنه علناً في كتب ومقالات منشورة على مدى نحو ربع قرن وهو انني ضد مبدأ " الأرض مقابل السلام "، وعلى هذا الأساس عارضت اتفاقية كامب ديفيد. ذلك لأن الأرض، الوطن، ملكية مشتركة تاريخياً ومصيرياً للأجيال المتعاقبة. وبالتالي لا يملك أحد من أي جيل، ولا أي جيل بكامله أن يتنازل عنها أو يقايض بها لحل مشكلته الآنيّة الخاصة.

وهذا واضح تماماً بالنسبة لقضية فلسطين، فهي أرض عربية مغتصبة، وقد تم اغتصابها على مرحلتين. الأولى عام ١٩٤٨ والثانية عام ١٩٦٧ واغتصاب باقي فلسطين عام ١٩٦٧، لا يخول أحداً حقاً في قبول الاغتصاب الجزئي الذي تم عام ١٩٤٨. لا أحد يملك هذا أعني ان قبوله غير مشروع ويتحمل من يقبله مسؤوليته وحده ومامقولة " الأرض مقابل السلام " إلا قبول صريح باسترداد الأرض التي اغتصبت عام ١٩٦٧ في مقابل ترك الصهاينة يعيشون في سلام على الأرض المغتصبة عام ١٩٤٨.

هذه المقايضة، مقايضة أرض عربية بأرض عربية، لا تحتمل التأويل أو التفسير أو المغالطة. وقد كان السادات أول من قبل هذا المبدأ على وجه مكشوف فاحش، وما كامب ديفيد إلا وثيقة كان يأمل من ورائها استرداد أرض سيناء مقابل السلام مع إسرائيل الذي يعبر عنه دولياً "بالاعتراف " إذ بالاعتراف يكون من قدم السلام ملتزما أمام المجتمع الدولي باحترام وجود وحدود وسيادة الدولة التي يعترف بها.

ولم يكن هذا المبدأ " الأرض في مقابل السلام " بعيداً عن أحلام بعض الدول العربية التي اغتصبت بعض أرضها عام ١٩٦٧، و لا على مجمل الدول العربية التي اختارت السلام كما يقولون، وكان يشجعهم على هذه الأحلام أنهم يقايضون أرض فلسطين بأرض من دولهم أو حتى بإعفاء أنفسهم من المشاركة في مساندة الثورة الفلسطينية، إنه موقف مدان قومياً ولم أكف من ناحيتي عن إدانته.

الجديد في الاتفاق موضوع السؤال هو ان بعض الفلسطينيين هم الذين قبلوا المقايضة، وهي حالة مختلفة تماماً عن الموقف الساداتي الاقليمي. لأن الذين يقايضون الآن جزءاً من الوطن بجزء من الوطن هم أصحاب الوطن كله. وبالتالي فإنه استسلام كامل قبل تحرير الوطن المغتصب كاملاً .

ومع تقديري الكبير لكل المناضلين من أجل تحرير فلسطين ، وإعجابي بصلابة كافة المنظمات التي تشكلت منها منظمة تحرير فلسطين فإنني يجب أن أعترف بأنني كنت أراهن لحساب المستقبل القومي على ثقتي بمنظمة فتح بالذات، وهي المنظمة الوحيدة التي بشرت الأمة العربية بمولدها.

وذلك لأنني كنت أعتقد ان منظمة فتح محصنة بحكم نشأتها دون قبول فكرة الأرض مقابل السلام التي كنت أتوقع منذ ١٩٦٧ أن الدول العربية ستحاول جر الثورة إلى قبولها. ذلك لأن فتح قد نشأت وبدأت نشاطها الثوري منذ بداية ١٩٦٥ ، وبالتالى فإن وجودها ونشاطها كان منذ البداية من أجل تحرير ماكان مغتصباً من أرض فلسطين في ذلك الوقت، أي الأرض التي اغتصبت سنة ١٩٤٨.

وقد كان ذلك في وقته توجهاً ثورياً رائعاً وبطولياً لأنه كان يواجه صعوبة لا يمكن الاستهانة بها هي بداية الثورة من خارج أرضها، ومن غير أرضها أي من أرض اقليمية تحرسها دولها، تحدي هذا كان المصدر الأساسي لاحتضان الشعب العربي كله منظمة فتح ورموزها. وكان هو الذي جعل منها أملاً في أن تنمو ثورة عربية. وكان هو وحده الذي رفع رموزها القيادية إلى مرتبة من إعجاب الشعب العربي لم تسمح لأحد بأن يثير "علناً ماكان ملحوظاً من أخطاء بينه.

تستر الشعب العربي على أخطاء منظمة فتح، وحماها من النقد، لأن الجوهري فيما كانت تمثله هو انها المنظمة الثورية التي كانت تستهدف تحرير الأرض المحتلة عام ١٩٤٨، وبعد هزيمة ١٩٦٧، أكاد أقول ان الآمال الشعبية العربية قد أصبحت معلقة بمنظمة فتح كرمز للثورة الفلسطينية.

الآن: رموز من فتح، يقبلون المقايضة، انهم يتحملون من الآن، وأياً كانت النتيجة، مسؤولية كل التضحيات على مدى أعوام ١٩٦٥ و ١٩٦٦ والنصف الأول من ١٩٦٧٠ إذ يبدو واضحاً أن تلك البداية المبكرة لم يكن لها مبررها، وان تلك التضحيات السابقة على شروط المقايضة قد ذهبت هدراً.. وهو موقف يبدد بقسوة ووحشية آمال جيل عربي حلم بفتح وشارك فتح أحلامها واستمد أحلامه من فتح التى كانت قبساً مضيئاً - كما قلت عام ١٩٦٨ أضاء طريق الشباب العربي إلى مستقبل كان محجوباً بظلام كثيف .

لقد كنت شخصياً أحلم أحلاماً قومية لا تغيب عنها فتح الثورة المنتصرة بالرغم من التآمر الدولي الصهيوني العربي الاقليمي.. وكانت تربطني بالذين أبرموا الاتفاق بالذات وعلى رأسهم أبو عمار علاقة مودة عميقة واحترام متبادل قائمان على أساس وحدة الموقف : ثورة حتى النصر.

ولطالما كنت أريد أن يطمئن قلبي فكنت أسأل في لقاءات خاصة : هل من الممكن يا أبا.. أن تعترف الثورة الفلسطينية بإسرائيل اعترافا مباشراً أو غير مباشر، معلناً أو مستوراً، وكنت أسمع الرد الحاسم القاطع المصحوب بعتاب رقيق على توجيه هذا السؤال الذي لا ينبغي ان يوجه إلى الثوار.. فاطمئن.. الآن، لا أعتقد أن أحداً أكثر حزناً مني على الاخوة الذين يقبلون الاعتراف بإسرائيل تحت مبدأ "الأرض مقابل السلام ".. ومع ذلك فإن الثورة لن تتوقف. ستسقط كامب ديفيد، وقد سقطت ترجمتها اللبنانية الصهيونية، وغداً أو بعد غد سيسقط الاتفاق مع الأردن.. كل مافي الأمر انه يزيد من عذاب شعبنا العربي، ويعوق مسيرة الثورة ويمد من أمد التحرير ويضاعف عدد الضحايا..

هذا هو الأثر الذي يعتد به من آثار الاتفاق.. أما مايقال انه قد آثر على مجمل مواقف الدول العربية فهو لم يأت بجديد، انه قد يكون أثراً لمواقف الدول العربية وليس مؤثراً في تلك المواقف. فقد انكشف الآن الغطاء، وأصبحت المواقف الخفية تعربد علناً بفظاظة. وتبين ان أغلبهم ساداتيون، وانهم كانوا وهم يدينونه ويشهرون به غاضبين لأنه لم يشركهم في الأمر، أو لانه اختار طريقاً مبالغاً في استفزازه حتى وصل إلى القدس، أو انه طالبهم بالكشف عن مواقفهم

بطريقته وفي وقت لم يكونوا مستعدين له.. إنما في الجوهر كل من يقبل مقايضة "الأرض بالسلام " هو تلميذ " شاطر " أو خائب أو خائف من المدرسة الساداتية.

لا فائدة بعد ذلك من الحديث عن الاجراءات.. مفاوضات أو لا مفاوضات، وفد فلسطني أردني مشترك أو وفد عربي، مؤتمر دولي أو غير دولي.. كل هذا يستمد قوته من الغاية التي يراد الوصول إليها.. وقد أعلنت الغاية. فلا يجوز لمن كان ضد الغاية أن يناقش- حتى مناقشة- وسائل الوصول إليها. ذلك لأن الموقف المضاد هو: إذا كانت الغاية هي تحرير فلسطين من البحر الى النهر، فلا قيد ولا حرج من أن يناور الثوار وأن يستعملوا كل الأسلحة المتاحة لهزيمة العدو، وأن يستخدموا كل الامكانات الدولية، وينتهزوا كل الفرص من أجل هزيمة العدو.. لا يمكن ولا يقبل أن يفرض على الثورة أسلوب واحد كأنها ثورة في فراغ.

هذا لاشك فيه.. ولكن أن تكون المناورة من أجل الوصول إلى العدو لا للقضاء عليه بل لمنحه السلام في الأرض المتعلق بتحريرها مصير الثورة وشرف الثوار.. فهذا شيء آخر لا أريد أن أسميه تأدباً.

الوطن: ماهو تصوركم لمواجهة العدوان الاسرائيلي في لبنان واحتمالات التطور المستقبلية؟

د. عصمت : إن الثورة الشعبية المندلعة على أرض لبنان والتي يسمونها المقاومة الوطنية، هي المرحلة الثانية من مراحل الثورة العربية التي بدأت فلسطينية وهذا ماجعلني أقول من قبل ان الثورة لن تتوقف، إنما هي مستمرة تلتهب حول القضايا الملتهبة وتنتشر على الأرض العربية إلى أن تتحول إلى ثورة شاملة وملاحظة التكوين البشري للثورة الشعبية في لبنان يؤكد هذا.

فالثورة هناك مفتوحة لينخرط فيها كل مقاتل عربي بصرف النظر عن انتمائه السياسي. أعني ليس المقاتلون هناك لبنانيين فقط ، ولا يصد اللبنانيون منهم غيرهم من الأقطار الاخرى عن المشاركة في الثورة . إنها نقلة نوعية في نمو الثورة، وأعتقد ان كل المحاولات العربية والدولية التى تحاول الآن إدخال الثورة في إطار الدولة ستفشل. ويفلح ساسة لبنان ويتجنبون كثيراً من المتاعب لو تعاملوا مع هذا الواقع الجديد. وهم سيتعاملون معه ويقبلونه حين يعرفون ان الأمة العربية من المحيط إلى الخليج تغلي في داخلها، وانها تمهد لانفجار الثورة العربية الشاملة، بانفجارات ثورية تنتقل من مكان إلى مكان حائمة حول مصدر التفجير اسرائيل. فعليهم أن يكتفوا بما يتيحه لهم الوضع الثوري العربي من سلطات سياسية وإدارية، أما محاولة إيقاف الثورة أو ترويضها أو تكبيل حركتها بقيود مايسمونه الشرعية فلن يؤدي الا إلى أن تجتاح لبنان جميعاً لتؤمن حرية حركتها القتالية من مواجهة العدو.. بل ان الاصرار على تحجيمها أو تصفيتها قد يؤدي إلى أن يجتاح المدى الثوري أقطاراً أخرى.. أما ان الثورة الشعبية في لبنان تواجه العدوان الاسرائيلي فلا يجب أن يفهم هذا على انه يعني العدوان الاسرائيلي على لبنان. مالم يصل التآمر على الثورة درجة الاستعانة بقوات أجنبية، فإنها لن تلبث كثيراً حتى تواجه العدوان الاسرائيلي على فلسطين.. وان غداً لناظره قريب..

إن هذا يعني تماماً انني أدعو كل الشباب العربي الذي فاتته فرص الاشتراك في الثورة العربية في المرحلة الفلسطينية.. من نموها أن يلتحقوا بصفوف الثورة في مواقعها على أرض لبنان ليحولوها بأسرع مايكون إلى ثورة عربية قومية.

ومصر؟

الوطن: الساحة المصرية.. ماذا يجري فيها وإلى أين؟

د. عصمت: إن المعيار الوحيد لمعرفة مايجري في أية ساحة وإلى أين هو تجاهل المفردات والتركيز على الاتجاه العام. طبقاً لهذا المعيار أستطيع أن أقول ان مصر الآن في مفترق الطرق إلى درجة يصدق معها مايقوله البعض ان أحداً لا يعرف إلى أين يتجه ذلك لأن مصر قد بدأت بعد وفاة السادات على اتجاهه.

واتجاه السادات كان محدداً بعلامات واضحة أدت كل علامة منها إلى مايليها فتكونت منها سلسلة أوضحت معالم الاتجاه العام.

بدأت أول العلامات بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ بما يسمى الانفتاح الاقتصادي، أدى الانفتاح إلى اندماج الاقتصاد المصري في البنية الاقتصادية الرأسمالية. تدفقت إلى مصر رؤوس الأموال والنشاطات الرأسمالية بكل أزمتها الناشبة منذ عام ١٩٧٠ فعرفت مصر التضخم وغلاء الأسعار والمضاربة والنشاطات الطفيلية. ولأن مصر أضعف إنتاجياً من أن تتغلب على هذه الأزمة فقد لجأت إلى الاستدانة لتعويض نقص الانتاج. فأدى ذلك إلى تحول مصر بشكل أساسي إلى سوق استهلاكي للسلع الرأسمالية المستوردة. أصبح اشباع الاحتياجات الأساسية للشعب من أول الخبز إلى الفول إلى مافوق ذلك متوقفاً على مايأتي من الخارج.

قبضت الدول المتقدمة الرأسمالية وخاصة الولايات المتحدة الأميركية على شعب مصر من امعائه. ثم قدمت له الطلبات، والنصائح، والمشورات التي تدور كلها حول مقولة باردة الكلمات قاطعة الأثر: لكي يمكن الاستمرار في المعونات الاقتصادية وتدفق رؤوس الأموال.. لابد من أن يطمئن الرأسماليون. ولكي يطمئنوا لابد من إنهاء حالة الحرب. وإنهاء حالة الحرب أدت إلى القطيعة العربية،.. فتفاقمت الأزمة ومات السادات.